

نظریه ادبی دریافت در پرتو ادبیات تطبیقی

دکتر سید فضل الله میرقادری

دانشیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه شیراز

دکتر حسین کیانی

استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه شیراز

چکیده

نودگرگونی‌های نیمه دوم قرن بیستم در آلمان، در عرصه‌ی ادبیات تطبیقی، آن را از پرداختن کامل به رابطه‌ی متن و مؤلف، بازداشت و به آن، رویکردی «خواننده‌محور» داد. پیروان این نظریه، خواهان مشارکت فعال بین متنی که آفریننده‌ی متن، پدید آورده و برداشت خواننده، به عنوان پذیرنده و مصرف‌کننده شدند، زیرا برداشت خواننده، به آن اعتبار تازه‌ای بخشیده‌است. این برداشت را «دریافت» نام نهاده‌اند.

نظریه‌ی «دریافت» که پژوهشی از دگرگونی‌های اجتماعی و اندیشگانی و ادبی در آلمان غربی خلال دهه شصت قرن بیستم بود، به دریافت خواننده از متن اهمیت می‌دهد. صاحبان این نظریه مفاهیمی را مطرح کردند که ویژه آنان بودمانند: افق انتظار، نومیدی افق، تغییر افق، مسافت جمالی، تعامل بین متن و خواننده و خواننده ضمنی. این گفتار سپس ضمن بررسی رابطه بین نظریه‌ی دریافت و ادبیات تطبیقی، نمونه‌هایی را به عنوان زمینه‌های پژوهش براساس آن، ارائه داده‌است.

کلید واژه‌ها: ادبیات تطبیقی، نظریه دریافت، افق انتظار، نومیدی افق، تغییر افق

أبو الأسود الدؤلي رائد النهضة الفكرية و العلمية و مجدد شعري في الاسلام

محمد اعتمادي^١، الدكتور سيدرضا نجفي^٢، الدكتور عبدالغني ايرواني زاده^٣

الملخص

أبو الأسود الدؤلي، او ظالم بن عمرو، من أبرز شخصيات عصر صدر الاسلام، و الرموز البارزة الذي كان له الدور الاكثر فاعلية في ترسيخ الفكر الاسلامي في مختلف ابعاده و جوانبه، فهو مخضرم تابعي تألق نجمه في مختلف ميادين العلم و الأدب، لاسيما في عصر خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، أبو الأسود فضلاً عن كونه من رجال السياسة، و الفقاهاة، و الرواية، و القضاء و الحرب، فهو من الشعراء المجيدين، الذي امتاز و أبدع في كثير من الاغراض الشعرية، و بالخصوص الشعر الملتزم، فهو في الواقع باني و مؤسس الكثير من العلوم الاسلامية، و مجدد في الشعر الملتزم بخط آل البيت (ع)، كذلك صاحب مدرسة نحوية ابتكرها بارشاد و اشراف من الامام علي بن أبي طالب (ع)، و لا يخفي على احد ما قام به من انجازة الخالد بوضع النقاط على حروف القرآن الكريم ليسهل قراءته و يبعد عنه اللحن و الالتباس، الا ان هذا العالم و الأديب رغم ما قيل عنه لم يحظ بالبحث و النقد بالشكل الذي يستحقه. و لظروف خاصة و عوامل عديدة تغافل عنه التاريخ، و لف حياته بغموض و اجمام و أثرت حول ريادته التأسيسية للعلوم الاسلامية و القرآنية شبهات تهدف الحط من موقعه العلمي و الادبي و لاسيما من قبل عدد من المعاصرين.

المفردات الرئيسية : ابو الاسود الدؤلي، النحو، الالتزام، الشعر، الثقافة

١. طالب دكتوراه، عضو الهيئة التدريسية بجامعة آزاد الاسلامية في ايلام

ReZAnjafi84@yahoo.com

٢. استاذ مساعد في اللغة العربية و آدابها بجامعة اصفهان

٣. استاذ مساعد في اللغة العربية و آدابها بجامعة اصفهان

تاريخ قبول البحث: ١١/١١/٨٩

تاريخ استلام البحث: ٨٩/٧/٤

المقدمة

من اجل احياء تراث الأدب و الفكر في صدر الاسلام، و الطلائع المبدعة و الرموز البارزة التي كانت لها دور فاعل في ترسيخ الفكر الاسلامي في مختلف مجالاته و فنونه، تطرقنا لأحد هؤلاء النخبة، شخصية متألفة لم تحف بصمات أصابعه في اي مجال من المجالات الأدبية و العلمية و الفكرية، و هو المشهور (بأبي الأسود الدؤلي). لقد تطرق الباحثون و الدارسون و النقادبا شباع لكثير من شخصيات عصر صدر الاسلام و رواده الأوائل، و لكن لاسباب عديدة لم يحظ الدؤلي بذلك الاهتمام الذي يليق بمستوي شخصيته بالنسبة الي معاصريه. في هذا المقال القينا الضوء بشكل عام على هذه الشخصية الفذة من خلال التعرض الي جوانب مختلفة من علمه و أدبه، مبتغين في ذلك كشف الستار عن رائد من رواد النهضة الفكرية و الثقافية و الأدبية في صدر الاسلام، و الذي يعد بحق و انصاف، مبدعاً لعديد من علوم اللغة و القرآن، و تلميذاً لأمر المؤمنين على (ع) في تأسيس علم النحو الذي شكل البني التحتية للعلوم الإسلامية و اللغوية الي يومنا الحاضر، و كذلك التعرض لشاعر مجدد، بل مبتكر الشعر لوجهه و الملتزم، الذي يدافع باخلاص، عن اهم قضية اختلف عليها المسلمون منذ السقيفة الي اليوم، الاوهي قضية الامامة و التشيع لاهل البيت (ع). فابوالاسود رجل ذو ابعاد مختلفة، كان له الأثر الفعال في مجمل النهضة الفكرية في الاسلام، و رغم تغافل التاريخ عنه في ادوار مختلفة من حياته، الا انه لا يمكن فصل تاريخ صدر الاسلام عن تاريخ أبي الاسود الدؤلي، فان ما قيل عن أبي الاسود مبعثر في الكتب و المصادر التاريخية و كتب الرجال امثال أنساب الاشراف للبلاذري، و خزانة البغدادي، و أغاني أبي الفرج و الكامل للمبرد، و غيرها من الكتب و لا تعدوا ما نقل عنه لاشذرات مبعثره و مكررة تناولت بعض الابعاد الادبية و العلمية و الاجتماعية من حياته، اما من المعاصرين فلم ينل أبو الاسود نصيباً من بحوثهم، و تحقيقاتهم، الا ماندر فقد ظهر ديوانه الشعري بعد قرون مديدة. و يعتبر كتاب الدكتور فتحي الدجني حول أبي الاسود، و كتاب الدكتور محمد المنصور (ابوالاسود الدؤلي في الميزان) و كتاب ابوالاسود الدؤلي للسيد هاشم محمد من الكتب و الدراسات المعاصرة التي استندت الي المصادر القديمة، و اتخذت المنهج التحقيقي الحديث للتعامل مع شخصية أبي الاسود الدؤلي و هذا فضلاً عن بعض الكتب في تاريخ النحو.

أبو الأسود - نسبته و شخصيته:

وردت في كتب التاريخ والأدب قديماً و معاصراً سلسلة أسماء تعد نسب أبي الأسود، ربما خالط هذه الأسماء اختلاف و تغيير، و تقدّم و تأخير و أكثرهم ينسبونهم إلى قبيلة كنانة العربية. أبو الأسود الدؤلي هو (ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل ... بن كنانة). و يبدو ان مرد هذا الاختلاف في اسمه و نسبه يعود إلى انه اشتهر بكنيته و ليس باسمه. و إن الذي يعرف بكنيته و يشتهر بها قد يخفي على الناس اسمه الحقيقي. (الدجيلي- الديوان، ٤) و على حسب ما نقل من المصادر التاريخية، إن أشهر سلسلة لعرض اسمه و آبائه و نسبه، تكاد كلها تتفق على (ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان ... بن كنانة). (ابن حجر، الاصابة ١٥ و القفطي، انباه الرواة، ٥٠ و ابن قتيبة، الشعر و الشعراء، ٤٣٧)، الاماندر من الاختلاف، ظالم بن عمر بن سفيان (ابن منظور، لسان العرب ٢٣٢/١) و ظالم بن سارق (المماقاني، ١١١/٢) و في بعض المصادر الاخرى؛ تقليص الأسماء او ادخال بعضها ببعض لقرب الشبه، او لرسم الخط العربي القديم. و خاصه اذا عرفنا أن الاعجام كان غير موجود في ذلك الوقت فضلاً عن سوء نقل الوراقين. (الدجيلي، الديوان ٥) اما بالنسبة إلى كنيته و لقبه، فهو قد اشتهر بأبي الأسود، و لم يختلف على ذلك أحد، و لكن المشهور أن أباالأسود لم يكن أباً لولد اسمه أسود، و لم يذكر المؤرخون سبباً واضحاً لكنيته بأبي الاسود (المصدر السابق)، حتي لم يثبت ان بشرته سوداء و يبدو أن أباالاسود نفسه قد شجع هذه الكنية أكثر من تشجيعه لأسمه، و السبب هو أن اسمه ثقيل على السمع (ظالم)، و هو يتنافى مع مكانته الاجتماعية. فالحاكم و القاضي يتصف بالعدل، فالمظلوم لايري غير ذلك في القاضي، لذلك ابعد (ظالم) عن نفسه حتي لا يؤثر في نفس المظلوم. (المنصور، ابوالاسود في الميزان، ٧١) اما لقبه (الدؤلي)، و الدؤل حي من كنانة و هم اخوة قريش (الأغاني ٢٩٧/١٢) و يبدو أن الدؤل قبيلة عربية من كنانة ينتمي إليها أبوالاسود، او ان الدؤل اسم لاحد اجداد الشاعر.

الدؤل بمعنى الختل و الختل بمعنى البيت او حجر الارنب، و عن ابن الاعرابي، الدأل عدو متقارب، و عن ابن بري، الدأل دويبه و الدؤل دويبه تشبه الثعلب. (لسان العرب، ٢٣٢/١) و قد يلفظ احياناً بالدليل لصعوبة تلفظ كسرة الهمزة و كسرة اللام بعد حرف مضموم، او تفتح الهمزة. (ابن قتيبة، ادب الكاتب، ٦١)، و قد عرف الدؤل في تاريخ صدر الاسلام ب(رهط أبي الاسود) (ابن قتيبة المعارف، ١١٥ و ابن خلكان، وفيات الاعيان ٢١٩/٢)

مولده و وفاته:

لم يتطرق المؤرخون الى ذكر سنة ولادة أبي الأسود، و هذه أيضاً من الامور المبهمة الاخري في حياة أبي الأسود، و اختلفوا في سنة وفاته و سببها، و الثابت انه ولد في الجاهلية، و يعزون ذلك الى انه ولد قبل الهجرة النبوية ب (١٦) عاماً و وفاته بين عام (٦٩ هـ)، و (٦٧ هـ)، و (٩٩ هـ) أي في أوائل خلافة عمر بن عبدالعزيز.

قال ياقوت(الحموي، ياقوت، معجم الادباء ٢٨٠/٤) (انه توفي بالطاعون الجارف في سنة ٦٧ هـ)، و قيل توفي سنة ٦٩ هـ (الاعاني ٤٦/١٢)، و قد تبني صاحب الاعاني وفاة أبي الأسود بمرض الفالج قبل عام الطاعون الذي وقع في البصرة في (٦٩ هـ) على اعتبار عدم وجود ذكر لأبي الأسود في قضية مسعود و المختار. (المصدر السابق ٢٣٣/١١)

و الذي يرجح لعام وفاته من خلال كثرة الروايات هو عام (٦٩ هـ)، ذلك لكثرة المؤرخين الذين ينقلون هذا التاريخ من جهة، و من جهة اخري لاقتران وفاة أبي الأسود بحادثه تاريخية مهمة و هي الطاعون الجارف و هذا الطاعون وقع عام (٦٩ هـ) في البصرة و لم يقل احد بان هذا الطاعون وقع بغير هذه السنة. (الدجيلي، الديوان)

و يتضح من كل هذا انه ولد بالجاهلية و عاصر الاسلام و عاش مسلماً (٨٥) عاماً، اما حول تاريخ اسلامه اختلف المؤرخون في ذلك ايضاً، و الثابت دخوله الاسلام في حياة الرسول(ص). (المصور ٧٤)

شخصية أبي الأسود و طبقتة:

رغم اختلاف المؤرخين على الزمن الذي دخل فيه أبو الأسود الاسلام، لكنه يبدو أنهم متفقون على انه دخل الاسلام في حياة الرسول (ص)، و هناك شبه اتفاق ايضاً على انه لم ير الرسول في حياته و إن أسلم و الرسول (ص) حي و يبدووا أنه اسلم في اواخر حياة الرسول، و لانه لم يكن من أهل المدينة او من القبائل العربية من المدينة لذا لم تسنح له فرصة التشرف بزيارة الرسول (ص) و رؤيته.

و لعل هذا يعود الى البعد المكاني او أسباب اخري. (ملحس، ثريا، حزب الشيعة ١٣٤)

فهنا يبدو السبب هو البعد المكاني عن الرسول او لمرض سبب عدم مغادرة محل ولادته الذي كان في ضواحي مكة المكرمة، و كما نعلم ان الرسول (ص) سكن المدينة المنورة في أواخر أيامه و هذه أمور منعت وصول أبي الأسود من التشرف برؤية خاتم الانبياء محمد (ص). و لكن هناك رواية شاذة تدل على ان أباالأسود الدؤلي أدرك الاسلام و شهد بداراً مع المسلمين.(الاغاني ٣/٣٠١)

و بالطبع تختلف هذه الرواية و تتضارب مع ما هو موجود في الكتب التاريخية من حيث ان المؤرخين سجلوا بدقة الحوادث و القضايا التي حدثت في زمن الرسول (ص) او التي شارك فيها الرسول (ص) نفسه.

و اذا كانت الصحبة للنبي (ص) تتطلب رؤيته في حياته، فان أبا الأسود يخرج بها من كونه من الصحابة، فهو اذن مخضرم غير صحابي لانه ادرك الجاهلية و الاسلام، لكنه لم ير النبي (ص)، بل رأي و التقى و عاش مع الاصحاب، لذلك فهو تابعي و قد قيل أنه من لقي الصحابة مؤمناً بالنبي (ص) و مات على الايمان فهو التابعي.

حاء في الاغاني: (المصدر السابق ١/١٩٨) كان أبوالأسود الدؤلي من وجوه التابعين و فقهاءهم و محدثهم و يذكر الجاحظ بانه كان معدوداً في التابعين (الجاحظ البيان و التبيين، ١/٤٣٥) كان معدوداً في التابعين و السيوطي ايضاً يعده من سادات التابعين.(بغيه الوعاة السيوطي، ٤/٢٢) و اما المامقاني يقول ان ابا الاسود بصري مخضرم. (تنقيح المقال، المامقاني ٢/١١١) و ابن حجر ايضاً يجعله من كبار التابعين و مخضرم الذين ادركوا الجاهلية و الاسلام.(الاصابة، ابن حجر ٢/٢٣٢). و قد قيل انه سمع من عمر و علي.(الصدر، تأسيس الشيعة، ٤٤)

و بايجاز فابو الأسود تابعي، لانه لم يلاق الرسول (ص) بل لاقى صحابته و روي عنهم، و مخضرم لأنه أدرك الجاهلية و الاسلام، لاننا حين نلاحظ عام وفاته أنه توفي في سنة (٦٩هـ) و كان عمره (٨٥) سنة حال وفاته، و هذا يعني انه ولد قبل البعثة النبوية الشريفة، فيكون قد ادرك الجاهلية و الاسلام.

و لقد تولي سفارة الامام علي (ع) هو و عمران بن الحصين من قبل عثمان بن حنيف و الى البصرة الى طلحة و الزبير و عائشة قبل وقعة الجمل ليحولا دون وقوع الحرب و سفك دماء المسلمين. (دائرة المعارف الاسلامية، ١/٣٠٧)

و واضح انه كان ذا موقع في مجتمعه، و قد شارك في الحياتين: السياسية و الثقافية، و قضيته مع ابن عباس حينما كان والياً على البصرة من قبل الامام علي (ع) مشهورة، فان ذلك يرتبط

بحادثة تاريخية مهمة، و هي قصة تجاوز ابن عباس على بيت المال و هرو به نحو الحجاز، ثم الرسائل المتبادلة بين أبي الأسود و بين الامام على (ع) من جهة، و بين ابن عباس و الامام على (ع) من جهة اخرى، فقد ذكر ابن الاثير (ابن الاثير الكامل، ٣/٣٨٦) الحادثة كاملة و التي ادت بالتالي الي عزل ابن عباس و استرجاع الامام على (ع) الاموال منه و هناك حوادث و قضايا اخرى اشترك أبوالاسود فيها و لعب دوراً فعالاً في كثير منها. و لو أن التاريخ قد تغافل عن ذكر معظمها و قد رأينا و للأسف ان حياة أبي الاسود في البصرة الي حين خلافة الامام (ع) تكاد تكون غامضة و مجهولة، و في بعض الاحيان مليئة بالتناقضات التاريخية، (آذرتاش آذرنوش، دائرة المعارف بزرگ اسلامي ٥/١٩٢). و كذلك حياته قبل الهجرة الي البصرة اكثر غموضاً و إبهاماً . لذلك نري ان دوره السياسي و الاجتماعي خلال هذه الفترات مجهول و مبهم، و نري يظهر فجأة في زمان الامام(ع) و حكومته و كل ما كتب عنه في التاريخ لايتجاوز هذه المرحلة الا قليلاً. و قد أوعز الكثير من المحققين هذا الامر الي كون أبي الأسود من الملتزمين بالامام على (ع) و من المدافعين عن احقيقته و اهل بيته بالخلافة. لذا يمكن القول بان التاريخ قد حذف تقريباً أكثر من نصف سني عمر أبي الأسود، و بملاحظة شخصيته، مما يكتنفها من فعالية و نشاط ثقافي و علمي، و اجتماعي، و سياسي، تبدو غرابة هذه القضية، لاننا نري شخصيات في التاريخ كانوا أقل شأنًا بكثير من أبي الأسود، الا ان التاريخ قد سرد حياتهم و نقلها بمفرداتها و تفاصيلها، و رجل مثل أبي الأسود قدر له ان يخدم الناس و المجتمع و الدين بنظرة ايجابية محضة، و مع ذلك نري الإهمام و عدم الوضوح في اغلب زوايا حياته الشخصية، و العامة.

أبوالاسود ريادة تأسيس علمي

على الرغم من ان المؤرخين لم يذكروا شيئاً عن موقع أبي الأسود في فتره وجوده في المدينة او في فترة حلوله فيها سوي انه هجر الي البصرة في خلافة عمر بن الخطاب او ان عمر ارسله الي البصرة ليكون عاملاً عليها او أرسله ليعلم أهل البصرة الاعراب. حين ارسل رسالة الي أبي موسي في البصرة ليعلم أبوالاسود أهل البصرة الاعراب. (القفطي، انباه الرواة ١/٥٠) و اذا علمنا ان المقصود بالاعراب لم يكن مجرد تحريك أواخر الكلمات و ضبط شكلها، بل المقصود هنا يتركز على مختلف علوم اللغة، و اذا علمنا ان البصرة قد هاجر اليها الكثير بعد الفتوحات و

خالطها أناس من مختلف الاقوام و الانحاء، فشخصيه. بحجم أبي الأسود، حديرة ان تنال شرف تعليم الاخرين و الدفاع عن اللغة و صيانتها في ذلك المجتمع الخليط الذي اصبح موضع قلق و خوف لاولياء امور المسلمين، و لقد كان الخليفة الثاني في انتخابه لأبي الاسود كمعلم مقتدر في هذا الجو محققاً، فمن غير أبي الاسود يقدر ان يصبح نجم البصرة اللامع!، و بهيء الارضية العلمية لتصبح البصرة فيما بعد مدرسة تشع منها العلوم.

خلفيته الثقافية

و ايأ كان سبب هجرته الى البصرة، فلقد كان ميالاً الى العلم و الثقافة، و الفكر، و كان ذا همة عالية، فعالاً نشطاً معتمداً على لياقته و استعداده و قدرته الثقافية، مما هياً له مكانة مرموقة في المجال العلمي، و هو اكمل الرجال رأياً و أسدهم عقلاً (بغية الوعاة، ٢/٢٢). و كان ذا دين و عقل و لسان و بيان و فهم و ذكاء و حزم. (ابن حجر، تهذيب التهذيب ١٢/١٣) و قد اعترف الكثير من المؤرخين بما يمتاز به أبو الأسود من امتلاكه لهذه المواهب و تضلعه بالعلوم، و هذا يدل على انه قد زود نفسه مبكراً بهذه العلوم و استطاع استيعاب مختلف مجالها سواء ما يتصل بالشريعة الاسلامية كالفقه، و القرآن الكريم و الاحاديث النبوية الشريفة، او ما يتصل بعلوم اللغة و الأدب، فهو البارِع و المقدم في جميع نواحي هذه العلوم و كان عالماً باللغة متمكناً منها.

و لكونه من التابعين الموالين لاهل البيت (ع)، كان من الطبيعي ان يكون منهله الاساسي و الاول، هو اتصاله بالامام على بن أبي طالب (ع) و صحبته له، و من ثم ببعض الصحابة الكبار، و رواية الاخبار عنهم بعد تزوده منهم في القرآن و الحديث و الدين. لذلك إن أبرز اساتذته هو الامام نفسه (ع)، فأبو الأسود تلميذه البار في القضاء و الفقه، و العلم. (القاضي، الفرق الاسلامية في الشعر الاموي، ٥٥٧)

و كذلك من اساتذته بعد الامام (ع) هو الصحابي الكبير و حبر الامة عبدالله بن العباس أشهر الصحابة علماً، و رواية، و تفسيراً و الذي تزود هو الاخر من الامام (ع) و لقد جاء في روضات الجنات و هو احد القراء قرأ القرآن على بن ابي طالب (ع). (الخوانساري، روضات الجنات، ٤/١٦٤). و كان أبو الاسود من القراء، قرأ على أمير المؤمنين. (ابن الرواة ١٠/٥٠)

و حول تضلعه و تسلطه و قدرته في علوم اللغة، فان له من السبق و الشهرة أوضح من ان تخفي على أحد و في اخبار النحويين(السيرافي، اخبار النحويين البصريين، ١٢) : قال ابو عبيدة معمر بن المثنى أخذ أبو الاسود عن علي بن أبي طالب (ع) العربية.

و قيل لأبي الاسود من أين لك هذه العلم؟ فقال لقلت حدوده من علي بن أبي طالب (ع). (الاغاني، ١٩٨/١ و القفطي ٥١/١)

و قال الشيخ الطوسي : «و قد روي (يعني أبا الاسود) عن علي و الحسن و الحسين و علي بن الحسين» (الدجيلي، الديوان، ٤٠)

و في الاغاني: و قد روي عن عمر بن الخطاب و علي بن أبي طالب فاكثراً، و روي عن ابن عباس و غيره. (الاغاني، ١٩٨/١) و قد روي عن عمر و علي و معاذ و أبي ذر و ابن مسعود، و الزبير بن العوام، و أبي بن كعب و أبي موسى و ابن عباس و عمران بن حصين. (الخوانساري، تهذيب التهذيب، ١٣/١٢)

و مقولة الجاحظ في أبي الاسود، و«أبو الأسود معدود في طبقات الناس، و هو في كلها مقدم مأثور عنه الفضل في جميعها، كان معدوداً في التابعين، و الفقهاء، و الشعراء و المحدثين، و الاشراف، و الفرسان و الامراء، و الدهاة و النحويين، و الحاضري الجواب، و الشيعة و البخلاء و الصلح الاشراف و البحر الاشراف. « (الجاحظ، البيان و التبيين، ٥٨/١ و الاغاني، ١٨٥/١). و قوله ايضاً: و كان حكيماً اديباً و داهياً أريباً. (المصدر السابق)

و يبدو ان ما قاله الجاحظ فيه لا يدع لبساً و لا إهمالاً في مقدرته العلمية و ريادة ثقافيه. و مما لا شك فيه ان المقتفي لآثار أبي الاسود العلمية و قدراته الفكرية، سيواجه موسوعة علمية، تأسيسية، ضخمة لانظير لها في عصره، و حياته الحافلة بمختلف النشاطات العلمية خير دليل على ذلك، فان أبا الاسود عاش في عصر سبق التدوين، و الا لكانت كتبه و مؤلفاته قد طغت على كل ما كتب في العصور اللاحقة، و لكانت آثاره العلمية و الادبية متعددة الاشكال، بتعدد قابلياته و استعداداته. و على هذا يكون أبو الاسود مفخرة من مفاخر علماء العربية و رجل الفصاحة و البلاغة، و قمه من قمم الفقه و الحديث، و نجماً لامعاً من نجوم الفطنة و البديهة، و حريّ برجل مثله ان يدع، و يخلق و يبتكر ثروة علمية يستند اليها اللاحقون و يقتفون آثارها. و يعتبر القرآن الكريم أخصب مجال له، من حيث قدسيته و بلاغته و أحكامه، لانه المصدر الاول للتشريع.

و كان أكثر اهتمامه في القرآن بالجانب اللغوي من حيث صيغته من اللحن، فهو سيد القراء، و عنه أخذ القراءة معظم القراء المشهورين. و كان أبو الأسود من القراء، قرأ على أمير المؤمنين (ع) (القفطي، ٥٠/١)

و بهذا نرى ان أبا الأسود و قد شرب من المورد الصافي، و تزود فيه، و من ثم نما و رشد و استعابت قدراته و ذهنيته الفذة كل ذلك، ليكون من الصفوة المبدعة و المؤسسة في شتي العلوم و المعرفة.

و قد ترك أبو الأسود تلامذة، يشار لهم بالبنان و لهم الفضل الأوفر في ازدهار النهضة العلمية و الادبية في العصور اللاحقة، و بالجمله لأبي الأسود تلامذة فضلاء و نجوم زاهره، امثال سعد بن شداد المعروف بسعد الراية و ابنه أبو حרב، و يحيى بن يعمر، و ميمون الاقرن و نصر بن عاصم و آخرين، و قد اشتهر نخبة من هؤلاء و اصبحوا أئمة في اللغة و العلوم، و اخذ عنهم طبقة اخري بعدهم قدر لهم ان يكونوا صانعي الكثير من العلوم في اللغة و النحو، (الطنطاوي نشأة النحو، ٦٣) و ما أبو عمر و بن العلاء، و ابن ابي اسحاق الحضرمي، و الخليل، و من ثم سيبويه، الا ثمار الجهود التي بذلها رجال من اصحاب مدرسة أبي الأسود العلمية، و الحق ان الاناء لا يوضح الاما فيه، و ما كان في اناء أبي الأسود الا الطيب من العلم و الثقافة و الفكر. لذلك فان الخلفية الثقافية لابي الأسود ذات ملامح علمية رافدها القرآن الكريم و امير المؤمنين (ع) و الصحابة الكبار، الى جانب استيعابه و صياغته لتجربته الحياتية.

مدرسة أبي الأسود النحوية

مما لا شك فيه أن اسم أبي الأسود الدؤلي، أصبح منذ القدم ملازماً لقضية اساسية في اللغة العربية، و هي قضية نشوء النحو و كيفية ايجاده، و من الذي ابتكره ابتداءً، ظهرت اصطلاحات تتعلق باللغة تداولت في صدر الاسلام، و لم تكن هناك نظرة واحدة في معاني هذه الاصطلاحات، و ان توسعت و استقرت هذه المعاني في القرن الثاني و ما بعده كالنحو، و العربية، و الاعراب و التعريب، فكثيراً ما اختطت معاني هذه المفردات و استبدلت و استعملت احداها مكان الأخرى، اما بداية النحو و تبسيطه، فقد و ردت آراء و نظريات تكاد تمثل في فريقين، فريق يؤيد و يتفق على ان النحو عربي الاصل و المنشأ، و إن الواضع الاول للنحو هو الامام علي (ع) او أبو الأسود الدؤلي بايحاء و ارشاد من الامام (ع). و

فريق آخر لديه اعتراضات و ردود فعل سلبية على هذا الموضوع، و حجتهم في ذلك أنهم يرفضون التسليم بعربية النحو و اصلته و يرجعون ذلك الى التأثير باللغات السريانية و اليونانية، و عدم وجود الظرف الخاص الذي يقبل هذه التسميات النحوية المنطقية، قياساً لقابليات العصر الاسلامي الاول. (ضيف شوقي، المدارس النحوية (ع))

اجمع العلماء المتقدمون على أن المؤسس الاول للنحو هو الامام على (ع) و ان ابوالأسود قد أخذ هذا العلم عن على (ع). أقدمهم ابن سلام المتوفي (١٣١) حيث يروي: إن أبوالأسود الدؤلي هو اول من استن العربية، و فتح بابها و انهج سبيلها، فوضع باب الفاعل و المفعول به، و المضاف، و حروف الجر و النصب و الجزم. (ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ١٢)

و يضيف ابن قتيبة المتوفي ٢٧٦ هـ: أن ابوالاسود اول من عمل كتاباً في النحو بعد على بن ابي طالب (ع) (ابن قتيبة، الشعر و الشعراء، ١٧١) و يأتي المبرد المتوفي (٣٨٥) ليكمل القول: «إن ابوالاسود اجاب من سأله عمّن فتح له الطريق فقال: تلقيته من على بن ابي طالب (ع) او القي على أصولاً احتذيت عليها. (المبرد، الكامل، ٢٣)

اما رواة القرن الرابع فقد اكدوا القضية، فهذا ابوالطيب اللغوي يقول: ان اول من رسم للناس النحو أبوالاسود الدؤلي فكان أبوالأسود اخذ ذلك عن اميرالمؤمنين على (ع) لانه سمع لحناً فقال لأبي الأسود اجعل للناس حروفاً، و أشار الى الرفع، و النصب و الجر، فكان ابوالأسود ضنياً بما أخذه من ذلك عن اميرالمؤمنين (ع) (ابوالطيب اللغوي، مراتب النحويين ٢٤) و هكذا لووردنا بقية روايات القدماء فان قضية واضع النحو و مؤسسها لاتتجاوز الامام علي(ع) و أبوالاسود الاماندر، كما يروي ابوالفرج ان أبوالاسود قد اخذ علم النحو عن الامام على (ع) (الاغانى ١٢/٢٩٩)

و السيرافي يروي إن أبوالأسود اخذ عن على (ع) و كان لايجز شيئاً مما أخذه. (السيرافي، اخبار النحويين البصريين ١٥) و غيرهم الى ان نصل الى القرن السادس فنرى ابن الانباري يورد الروايات الماضية، و يضيف ان الامام على (ع) قد القي الرقعة الى أبي الاسود و قال انحُ هذا النحو، ثم يثني على أبي الاسود و يقول: ما احسن هذا النحو الذي قد نحوت، فلذلك سُمي النحو نحواً، (ابن الانباري، نزهة الالباء، ١٨)

ثم يأتي القفطي و تتكرر الروايات الا ان القفطي يؤكد انه رأى في مصر بايدي الوراقين جزءاً فيه ابواب النحو يجمعون على أنها مقدمة على بن أبي طالب (ع) التي أخذها عنه ابوالأسود.

(القفطي، انباه الرواة ١٤/١) هذه، باختصار الروايات التي قالت بوضع الامام على (ع) النحو و تتلمذ أبي الأسود عليه، و هناك مصادر روائية عديدة تؤيد سابقه منها.

اما المحدثون فمنهم من أيد القدماء و منهم من شكك و رفض ما جاء به الرواة المتقدمون، و على رأسهم بعض المستشرقين امثال كارل بروكلمان، و البعض من المحققين العرب الذين ساروا على منوالهم، كأحمد امين، و سعيد الافغاني، و شوقي ضيف و غيرهم، جدير بالذكر فان آراء هؤلاء عباره عن استنتاجات سطحية و شخصية غير مستندة بادلة تاريخية و عقلية، و ربما كانت تحمل دوافع سياسية او عقائدية، و على سبيل المثال يذكر احمد امين ان تاريخ النحو غامض و ما ذكره الرواة لايشفي غليلاً و كل هذا حديث خرافة. (امين احمد، ضحي الاسلام، ٢٨٠/٢)

و كارل بروكلمان يقول: و مهما وجب علينا ان نعد من قبيل الاساطير دراسات أبي الأسود و تلامذته المزعومين... (بروكلمان، تاريخ الادب العربي ١٢٣)

اما شوقي ضيف و غيره لا يضيفون شيئاً سوي تكرار ماقاله الآخرون و بهذا اذا تأملنا في مجموع الروايات، رأينا بان آراء هؤلاء المعاصرين لا تصمد امام هذا الكم من الروايات، و يبدو آراءهم اقرب الى افتراضات و لم تبلغ الجزم و القطع العلمي. فمن الغريب بعدئذ ان يستنكر المستشرقون هذه النسبة المتواطى عليها قديماً و حديثاً. (انظر، الطنطاوي: ١٥)

و الواقع أن الامام على (ع) شعر بالضرورة الملحة لوضع قواعد تصون الكلام من اللحن بعد شيوخه في قراءة القرآن الكريم، و لما كان ابوالاسود مرجعاً في هذا الجانب لثرائه اللغوي و لذلكه أوكل اليه الامام على (ع) مهمة استنباط القواعد اللغوية و النحوية، و على هذا سار أبو الأسود و واصل بحثه فاكتشف بعض القواعد و الابواب النحوية، و قد كان مؤسساً في هذا و سار على منواله تلامذته ثم انتقل الى الآخريين الى ان وصل ما هو عليه الان.

أبو الأسود و تنقيط القرآن الكريم

لما كان جل العلماء و المحققين متفقين على ان أبا الأسود هو أول من نقط القرآن الكريم، و اول من ابتكر شكل النقاط و كفيتهها و مواقعها، فان بعض المشككين بقضية اسناد النحو الى الامام على (ع) او الى أبي الأسود جعلوا قضية التنقيط غطاءً على قضية النحو، اما في الواقع فالقضيةتان تختلفان تماماً، و ان كانتا لا تنفصلان.

و قد وضع أبوالاسود الدؤلي اول نقط لضبط الكلم في المصحف الشريف، او لضبط قراءته، فنقط أبي الاسود في الواقع ليست الاضبطاً اعرابياً للنص القرآني بغية قراءة نُحوية تشخص موقع الكلمة في التركيب اللغوي. (نورالدين عصام، تاريخ النحو، ٧٤)

اختلطت الروايات الدالة على تنقيط القرآن مع روايات واضع النحو احياناً، و لكنها متفقة على أن التنقيط حدث في زمن معاوية و ولاية زياد ابن ابيه على البصرة، فمن قائل انه سمع قارئاً يقرأ (إن الله بري من المشركين و رسوله (بكسر اللام في رسوله، فقال ما ظننتُ أمر الناس يصلُ الى هذا و استأذن زياد بن ابيه و الى البصرة ان يضع للناس رسم العربية، (ضيف شوقي، المدارس النحويه، ٣)، و هذا يخالف ما قيل إن أباالأسود كان ضنيناً بما أخذه عن علي (ع) حتي قال له زياد قد فسدت السنه الناس. (اللغوي، مراتب النحويين، ٤٦٥)

و قيل أن زياد طلب منه ان يعمل شيئاً يكون للناس اماماً فاستغفاه. (المصدر السابق) و قيل انه رسم حروف القرآن حين سمع ابنته تقول (ما احسنُ السماء) و هي لاتريد الاستفهام و انما تريد التعجب. (السيرافي، اخبار النحويين البصرين ١٩ و الاغاني ١٢/٢٩٧). و قيل ان سبب التنقيط هو كثرة اللحن و الحوادث التي سببت وقوعها و التي اعترضت الدؤلي كحادثته مع (سعد الفارسي، و الفرس الظالع) و غيرها. (ابن النديم، الفهرست ٦٠)

و على كل حال ان الرواية تأرجحت بين ان زياد هو الذي أمر اباالاسود بالتنقيط و بين ان أباالاسود و هو الذي طلب من زياد السماح له بذلك، و مهما يكن فالحق ثبت بدون شك ان الامر حصل من أبي الاسود سواء بطلب زياد او بطلبه.

فقد اخترع أبوالاسود منهجاً و اسلوباً خاصاً للتنقيط و حسب الروايه المشهوره، عندما أوتي له بكتاب من عبدالقيس فلم يرضه، فأوتي باخر و كان كاتباً لُقناً فقال ابوالاسود اذا رأيتني فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على اعلاه، فان ضمنت فمي فانقط نقطه بين يدي الحرف، و ان كسرتُ فاجعل النقطة تحت الحرف، و ان اتبعتُ شيئاً من ذلك غُتة فاجعل مكان النقطة نقطتين، و يعني بالغُتة التنوين. (السيرافي، ١٦) و القفطي (١/٤٠)

هذه الحادثة معروفة لدي كل من اشتغل في علوم العربية، و هي محل اجماع مما يؤكد دوره الذي احذه عن الامام علي (ع)

ان عمل الدؤلي ينطلق في اساسه على فقه اللغة و منهجه الاستقرائي الوضعي. (صبحي صالح، دراسات في فقه اللغة، ٢١) اي أنه انطلق من المنهج الوصفي في دراسة اللغة فدرسها كما هي

بذاتها و لذاتها ثم لهدف آخر و هو فهم النص أولاً و حفظه ثانياً. (نورالدين عصام، تاريخ النحو
(٧٢)

أبو الأسود الدؤلي في ميدان الشعر

بمراجعته المصادر التاريخية و الأدبية حول شاعرية أبي الأسود و شعره، نري بانه لكون أبي-
الأسود من كبار الشخصيات المتميزة في عصر صدر الاسلام، و من كبار المساهمين بنهضة
الفكر الاسلامي العلمي و الأدبي، لذلك كان طبيعياً ان ينال شعره، اهتمام الكثير من أعلام
الفكر في عصور مختلفه، امثال ابوسعيد السكري، و ابن جني، و ثعلب، و الاصمعي و غيرهم
جمعاً و رواية، و بقي ديوانه الشعري لعصور طويلة مخطوطة و محفوظة في مكاتب لايسبك
(الدجيلي، الديوان)، و بغداد، و استطنول لم يكن لشعر أبي الأسود ان يتخذ مساراً شعرياً
يختلف مع الموجة الشعرية التي حصلت في عصر صدر الاسلام، و لم يكن أشعاره شيئاً جديداً
بالنسبة الى واقع عصره، الواقع الذي خضع لتأثير الاسلام، و إن لم يتعد عن اسلوب شعر
البادية و العرب كثيراً.

و عندما نبحث في عصرنا الحاضر عن ديوان أبي الأسود الدؤلي، فاننا نري بانه هناك ديوانين
مطبوعين، أحدهما جمعه و حققه الاستاذ عبدالكريم الدجيلي، و الآخر جمعه و حققه الشيخ
محمد حسن آل ياسين، و الجدير بالذكر بان الديوانين قد تم جمعهما و طبعهما في العراق عام
١٩٥٣ م. و يبدو ان الديوانين قد حفلا بكل أشعار أبي الأسود، مخطوطة و مبعثرة في بطون
الكتب و المصادر الادبية التاريخية.

و أبو الأسود و ان كان من المخضرمين، لكنه لم يعد من طبقات شعراء المخضرمين، و لعل
ذلك يعود الى انه لم يسمع له شعر في الادوار الاولى للاسلام، لكنه لا يخفي ماله من موقع و
ذكر في التابعين و من خيرة شعرائهم و رجالهم، لاسيما في ايام خلافة أمير المؤمنين على (ع). و
مما لا شك فيه إن لأبي الأسود مقاماً و طبقة شعرية عالية و حسنة لدى الكثير من اهل الأدب،
و المؤرخين و النقاد، و ان اختلفوا في تقسيم شعره، فاكثر القدماء و صفوا شعره بالحسن و
الجيد و تابعهم عدد قليل من المعاصرين، اما المعاصرون بشكل عام و المستشرقون بشكل
خاص فقد نعتوا شعره بالضعف الفني، و انه لا يمثل عصره و غير هذا من الآراء النقدية، (انظر
الدجيلي، الديوان ٣٢) و اذا كان شعر ابي الأسود لم يصل على حد قول بعض القدماء و
المعاصرين الى ذلك الحد ليدخل ضمن مجموع النخبة لكنه استطاع ان يواكب المسيرة الشعرية

في عصره اسلوباً و معني، و تقلبداً و تجديدداً، الا انه لم يكن مكثراراً من الشعر، حيث انه له يخض فيما خاض الآخرون فشخصيته المرموقة و مستواه الثقافي جعله ان يكون صاحب رأي و اتزان يجسد مفهوم الشاعر الملتزم، الشاعر الذي بإمكانه اتخاذ المواقف و ابداء الرأي في مختلف القضايا و الاحداث. (آل ياسين، الديوان ١٠) و قد اتخذ في شعره مختلف الفنون و الاغراض الشعرية من مدح، و هجاء، و عتاب، و حكم و رثاء و غيرها من الاغراض، الا ان الفارق هو ان أبا الأسود الدؤلي اختلف في هذا بالاتجاه و الدوافع، و لقد دفع الدؤلي ثمن التزامه، و هذا واضح في حكم النقاد القدماء و المعاصرين عليه.

قال ابن قتيبة و هو (يعني أبا الأسود) يعد من الشعراء. (الشعر و الشعراء، ٣٨٠) و الجاحظ يضيف: كان خطيباً جمع شدة العقل و صواب الرأي و قول الشعر الظرف. (البيان و التبيين ٤٣٤/١) و اما ابن النديم: جمع شعر أبي الاسود الاصمعي و ابو عمر و بن العلاء. (الفهرست ٢٢٤) و في أسد الغابه: له شعر حسن. (ابن حجر ٢١٤/١)

و اما الامدي يصفه كان شاعراً متقناً للمعاني. (المؤلف و المختلف ١٥١) و هناك الكثير من كتب التراجم و الرجال ذكر فيها تقييم لشعره و عد من الشعراء الجيدين.

اما المعاصرون: قال فؤاد البستاني (دايرة المعارف البستاني ١٧٢/٤): و لأبي الاسود جانب آخر لا يقل اهميته عن الجانب النحوي هو شعره و يقول ايضاً: فشعره لا يصور بيته كاملة مع انه عاش زمن الانقلاب الفكري، فكان شاهداً ضئيلاً على ناحية ضيقة من نواحي العصر و هو في الواقع ناظم لاشاعر. و يضيف بروكلمان: «و شعر أبي الأسود ليس على مستوي رفيع من الوجه الفنية كما انه لا يقدم غنماً تاريخياً جديداً بالذكر في احوال عصره. (تاريخ الادب العربي ١٧١/١)

اما صانع ديوانه عبدالكريم الدجيلي يقول في مقدمة الديوان (الديوان ٣٣): «اني لم أجد لأبي الأسود مكاناً بين البارزين و العباقرة من الشعراء حينما أقدمت على تحقيق ديوانه، و انما حداني شيء آخر هي الرغبة الملحة في احياء أثر من آثار الفكر العربي في فجر نهضته الاسلامية.» و لكن هذا يناقض ما قاله محمد حسن آل ياسين محقق و شارح الديوان ايضاً يقول «يكون الحصول على ديوان أبي الأسود حصولاً على كثر ثمين من كنوز العربية الأصيلة.» (الديوان ١٧)

و بهذا نلمس بوضوح مقدار التفاوت و التناقض الذي يكون ضرورياً لفهم الملابس الحاصلة في الحكم على شعر أبي الأسود. و على ما يبدو أن القدماء و لو شطرهم نحو شعر أبي الأسود، الا انهم لم يحددوا طبقة الشعرية، و اغلبهم اکتفوا بالاعتراف بشاعريته، و احياناً بالاشارة على كون شعره شعر حسن، و يظهر ان عدم تعمقهم في شعره و عدم مقايسته مع الشعراء الآخرين يعود الى ان شهرة أبي الأسود في العلوم الكثيرة لاسيما في اللغة و النحو كانت قد طغت على المستوي الشعري لديه.

او انه شاعر لعصر قد تحول بسرعة، و لعصر تمخض عن احداث كبرى اجبر النقاد على الحكم على الشعراء بنوع من الحذر و الاهتمام المحسوب أمره. لكن المعاصرين اغلبهم ساروا على ما سار عليه بعض المستشرقين، امثال بروكلمان، و نولدكه و غيرهم، و لم يعيروا بالاً لما قاله القدماء و ان اختلفوا فيما بينهم كما أشرنا.

مظاهر التجديد و الالتزام في شعر أبي الأسود

اذا كان الالتزام في الأدب يصاحبه وجود الهدف، او الغاية التي من اجلها يحدد الأديب او الشاعر التزامه، فان الفن سيكون فيه ها دفاً و موجهاً توجيهاً فكرياً و اخلاقياً، و لن يكون في هذا مجال لمقياس الفن للفن(عزام، قضية الالتزام ١٩) كما يقولون.

و الأدب شعراً كان أم نثراً تتوسع دائره التزامه في ظل العقيدة الاسلامية لاسيما الادب الذي يلتزم القضية الأصلية و الاساسية في الاسلام، و الذي بدأ الخلاف عليها منذ رحلة النبي الكريم (ص) و الى يومنا هذا، الأوهي قضية الامامة و زعامة المسلمين. و الالتزام في الأدب هو تبني الأديب و جهة نظر محددة تجاه قضية معينة او قضايا معينة و الدفاع عنها.

والحق ان التزام أبي الأسود الدؤلي، يعد تجديداً شعرياً، نابعاً من عقيدته، و لقد طغى ذلك على مجمل شعره، و ان موقع التزامه يقع في الخانة الصحيحة و في الموقع الحق فموقعه الالتزامي بعيد عن الالتزام بالقبيلة، او الدفاع عن حزب خاص او جماعة سياسة محضه، كما كان رائجاً في عصره، فالتزامه يرتبط بقوة بالالتزام العقائدي و الفكري و الاخلاقي، و هذا لشاعر مثله طبيعي جداً بلحاظ اعتناقه الخالص للاسلام و ارتباطه الوثيق بمركز الولاية و بصاحب مدرسة اهل البيت (ع)، و بذلك حمل أبو الأسود لواء التجديد الشعري بالدفاع عن الحق و الولاية الالهية الحقة، فقد ابدع و ابتكر الالتزام الشعري الواقعي.

الدفاع عن الولاية

جاء في الديوان (الديجيلي ٢٣٨): انه لما رجع أبوالاسود و عمران بن حصين من مفاوضاتهم مع كل من طلحة و الزبير، والسيدة عائشة، و ايقن أبوالاسود انّ الحرب واقعة لا محالة و ان هولاء لا يردعون و لا ينصاعون للحق، هب مدافعاً على حق الامام على (ع)، و هددهم بانهم سوف يخسرون في حركهم فهم على باطل من امرهم: و قال:

أتينا الزبير فداي الكلام	وطلحة كالنجم او أبعدُ
و احسن قوليهما فادحُ	يضيق به الخطب مستنكدُ
و قد أوعدونا بجهد الوعيد	فاهون علينا بما أوعدوا
فقلنا ركضتم و لم ترملوا	واصدرتم قبل ان توردوا
فان تلقوا الحرب بين الرجال	فملقها حده الأنكدُ

ثم يطرح عليهم رأيه السياسي و الديني و يقول:

وان علياً لهم مـصحـرٌ	الا انه الاسدُ الاسودُ
اما انه ثالث العابدين	بـمـكـة و الله لا يعبدُ
فرحوا الخناق و لا تعجلوا	فان غداً لكم موعدُ

(المصدر السابق)

و يقول في رثاء الامام على (ع) يعد استشهاده، و هو يخاطب معاوية بن ابي سفيان.

الأ ابلغ معاويه بن حرب	فلا قرت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعثمونا	بخير الناس طراً اجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا	و خيسها و من ركب السفينا
و من لبس النعال و من حذاها	و من قرأ المثاني و المثينا
اذا استقبلت وجه أبي حسين	رأيت البدر راق الناظرينا
و قد علمت قريش حيث كانت	بانك خيرهم حسباً و دنيا

(المصدر السابق)

فقد قال ذلك دون خوف و دون تردد، قالها و هو يعلم ظلم معاوية و شرسته، قال ذلك و هو متيقن بان معاوية ألد أعداء امير المؤمنين على (ع).

و يقول في مجال آخر هو يظهر حبه للإمام علي (ع): (آل ياسين ١١٧)

يقول الارذلون بنوقشير طـوال الدهر لاتنسي عليا
فقلت لهم و كيف يكون تركي من الاعمال ما يقضي عليا
احب محمداً حباً شديداً و عباساً و حمزة و الوصيا
بنوعم النبي و اقربوه أحب الناس كلهم إليا
فان يك جهم رشداً أصبه و فيهم اسوة ان كان غيا
احبهم لحب الله حتي أجيء اذا بُعثت علي هويها

و يقول في حب اهل البيت (ع) ايضاً: (الدجيلي ٢٥٠)

أمفندي في حب آل محمد حجر بفيك فدع ملامك أوزد
من لم يكن بجهم متمسكاً فليـعترف بولاء من لم يرشد

في شهداء الطف

و في مقطوعة يصرخ أبو الأسود في وجه السلطة الغاشمة و يدعوا علناً من الله تعالى ان يهدم
اركان حكمه بني زياد و يفعل بهم ما فعل يقوم عاد و ثمود اذ يقول: (الدجيلي ٦٠)

أقول وزادني جزعاً و غيضاً أزال الله ملك بنسي زياد
ابعدهم كما غدروا و خانوا كما بعدت ثمود و قوم عاد
و لا رجعت ركائبهم اليهم اذا وقفت الي يوم التناد

يقولها أبو الأسود و هو يحترق حزناً دائماً علي ما اقترفته الايدي الظالمة متشمة بعبيدالله بن زياد
بقتله الحسين (ع) و اهل بيته.

و في رثاء الامام الحسين و بكائه عليه يقول ايضاً (آل ياسين ١١٧):

اقول لعاذلتني مرة و كانت علي ودنا قائمه
اذا انت لم تبصري ما أري فبيني و انت له صارمه
الست ترين بني هاشم قد افتتهم الفئة الظالمه

فلو كنت راسخة في الكتاب و بالحرب خابرة عالمه ؟
 علمت بأنهم معشرٌ لهم سبقت لعنة حاتم
 سأجعل لهم نفسي جنة فلا تكثري على اللائم
 أرجي بذلك حوض الرسول و الفوز و النعمة الدائم

و في هذا المجال ذكر معظم الكتب بيتاً مشهوراً في ذم بني أمية، يبدو ان بقية القصيدة او المقطوعة قد ضاعت، او تم اضعافها لما فيها من تهجم على بني أمية اذ يقول: (ابن خلكان، وفيات الاعيان ٢١٨/١)

صبغت أمية بالدماء اكفناً و طوت أمية دوننا دنياها

و يقول ايضاً (الدجيلي ٢٥٠):

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ماذا فعلتم و انتم آخر الامم
 باهل بيتي و انصاري و محرمي فهم أساري و قتلي ضرجوا بدم
 ما كان هذا جزائي اذ نصحتُ لكم ان تحلفوني بسوء في ذوي رحمي

و في مقطوعة اخري يرثي شهداء الطف و يعبر عن معتقداته اذ يقول: (المصدر السابق)

يا ناعي الدين الذي ينعي التقى قم وانعه و البيت ذا الاستار
 أبني على آل بيت محمد بالطف تقته لهم جفاة نزار
 سبحان ذي العرش العلى مكانه أي يكابره ذوو الاوزار
 أبني قشير إنني أدعوكم للحق قبل ضلالة و حصار
 قودوا الجياد لنصر آل محمد ليكون سهمكم مع الانصار
 كونوا لهم جنناً ذودواعنهم أشياع كل منافق جبار
 و تقدموا في سهمكم من هاشم خير البرية في كتاب الباري
 هم اهتديتم فاكفروا إن شئتم و هم الخيار و هم بنو الاخيار

و المجال هنا يضيق باستعراض كل اشعاره و احاديثه التي تعبر عن و لائه و إيمانه و التزامه، فقد أوردنا نماذج من شعره الهادف، من شعره الذي التزم فيه بالدفاع عن قضية اساسية، و اعتقاده في الاسلام.

القضية التي ترتبط بالحق و العدالة. و الحق أن ابا الاسود يعد اول من اسس و ابداع شعر الالتزام الايجابي، الشعر الهادف الذي يدور حيث تدور العقيدة و الهدف الاسمي، و هو بهذا قد هيئ الطريق لظهور شعراء ملتزمين ساروا على هداه و نهجه، أمثال الفرزدق، و الكميت، و

العبدى الكوفي، و السيد الحميري، و دعبيل الخزاعي و غيرهم ممن احبوا أمرا اهل البيت (ع) في شعرهم. و لقد جسد أبو الأسود في شعره الهادف المتلزم مقولته الشهيرة (ابن حلكان، وفیات الاعيان ٥٣٧/٢) «إني أرجو الله و الدار الاخرة بحبي لعلى (ع)».

خاتمة المقال

أبو الأسود الدؤلي شخصية كونها الاسلام و غذاها، و حدد مجال سعيه الى تحقيقها في مختلف ميادين الحياة على الساحة الاسلامية في عصرها الأول كنتيجة لمخاضات عسيرة عاشتها تلك الساحة. و لقد خرجت هذه الشخصية، و رفعت رأسها تحت ركام حلقات الحوادث و الوقائع الكبرى التي حصلت في عصر صدر الاسلام و بدايات عصر بني أمية، هذه الوقائع التي كانت آثارها تؤثر و تصبغ طابعها على مفردات الاوضاع، بعضها سلباً، و بعضها ايجاباً، و الهدف في الايجابية و السلبية يقرر من خلال مدي تناسب او تضاد هذه الاحداث مع مفهوم الرسالة الاسلامية و تطورها و تعزيزها، لذلك كان عصر صدر الاسلام أحوج ما يكون الى تغيير المعادله و تبديل الحالة من السلبية الى لاييجابية، و لا يكون ذلك الا من خلال جهود الصفوة و النخبة المثقفة و الواعية، و الشجاعة و التي تنشُد الحق و العدالة، و هذا أبو الأسود الشاعر و الفقيه و المتبحر بالعلوم و الرجل السياسي المخنك صاحب التقوي و الفطنة، طليعة النخبة و رائدها.

و لكن هذه الشخصية كما مر قد أحيطت بمالة من الابهام و الغموض، و لا احد يدري لماذا يتعامل التاريخ هكذا، فالرجل على فضيلته و علمه، و جهوده الجبارة في الحقول السياسية و الاجتماعية و العلمية و الادبية، فهو مجهول اكثر من نصف حياته، و كل ما هو موجود عن سيرته، انه ولد في الجاهلية في السنة السادسة عشرة، قبل البعثة النبوية الشريفة، و وفاته في عام ٦٩ هـ عام الطاعون الجارف مع اختلاف المؤرخين في تاريخ وفاته. و لكنه يظهر فجأة طيلة خلافة أمير المؤمنين على (ع) و لولا تشييعه و ارتباطه بالامام (ع) و لولا اشتراكه في الحوادث و الحروب التي خاضها الامام (ع) كانت سيرته ايضاً في عصر الامام غير معروفة. على كل حال استطاع أبو الأسود ان يربط ايجابياً بين كفاءاته و لياقته تناسباً مع متطلبات عصره، فهو من تابعي الطبقة الاولى قدر بعلمه الباهر في تنقيط المصحف الشريف، و ابتكار النحو و احداثه بارشاد و ايماء من مولاه و سيده الامام على بن أبي طالب (ع)، أن يسجل

اعظم انجاز و اكبر ابداع لحفظ و صيانة اللغة العربية و القرآن الكريم من شيوع اللحن، و غير ذلك من الأخطار التي كانت تهدد اللغة و فصاحتها، و لاسيما في البصرة بعد الفتوحات الاسلامية، حيث اصحبت مركزاً لتجمع شعوب و قبائل و امم متعددة، و كان لا بد من قيام عمل كبير يتناسب مع الوضع الموجود.

فهو قد ابداع في خلق الحركات لاعرابية التي لم تكن قبل ذلك معروفة لاحد كالضمة و الفتحة و السكون و الكسرة، مما اصحبت فيما بعد تعد العلامات الأصلية التي اعتمد عليها علم النحو و الصرف الى يومنا هذا.

و بقراءة سلسلة تلاميذ أبي الأسود، نستنتج ان النحو الموجود اليوم بقياساته و أدلته من سيويه الى العصر الحاضر، ما هي الا نتيجة ثمرة للجهود التي بذلها أبوالاسود في ابتكاراته اللغوية و العلمية.

اما في المجال الشعري، فابو الأسود، و ان اختلف النقاد قدماء و معاصرون في تقييم مستوي شعره، الا انه اتخذ الشعر و الشاعرية كجانب ثقافي آخر، فضلاً عن جوانب ثقافته في بقية العلوم، كالفقه و الحديث و الرواية، و الفتوى، و اللغة، و على كل حال و ان كان شعره على رأي البعض ليس بالمستوي الفني ليكون في صف عباقرة الشعر الا انه استطاع ان يبدع و يجدد فيه. لاسيما في شعره الولايتي الملتزم فهو اول من خط نهج الشعر الملتزم الولايتي، و أول من جعل من الشعر أداة لخدمة عقيدته و دينه، فهو بما يملك من ثروة لغوية و تضلع كبير في علوم اللغة و أسرارها، تمكن من مختلف الاغراض و الفنون الشعرية، و لكن لم يحترف الشعر، و لم يتفرغ له، فكان ذلك العالم التقي، و المفكر الشاعر، و الفقيه المحدث كوّن الاسلام هويته فسعي الى تحقيق ما يبتغي فية مرضاة الله، فصاغ تجربته شعراً، فتمثل الوعي لغة شعرية أضافت الى الشعر العربي نوعاً شعرياً جديداً.

و بذلك قدر لأبي الأسود أن يخلق نظاماً عقائدياً يمكن ان يكون قدوة للاجيال في جميع العصور، من خلال ايجاد الارتباط القوي بين الالتزام بالعقيدة و التشيع للحق و لاهل البيت (ع) عبر تجسيد روح الابداع و الخلق مع حفظ التمسك بالحق و التقيد بالمبادئ الاسلامية الصحيحة بعيداً عن كل ميل او انحراف.

المصادر و المآخذ

- آل ياسين ، محمد حسن،(١٩٧٤ م)، ديوان أبي الأسود، دارالكتاب، بيروت.
- الامدي، الحسن بن بشر،(١٩٦١ م)، المؤلف و المختلف، تحقيق عبدالستار فراج، مصر، داراحياء الكتب العربية.
- ابن الانباري، عبدالرحمن محمد، (١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م)، نزهة الالباء في طبقات الادباء، تحقيق عبدالسلام هارون، مصر، دارالكتاب العربي.
- ابن قتيبة، (١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ م)، الشعر و الشعراء، دارالكتب العلمية ، بيروت.
- ابن قتيبة،(١٤٠٧ هـ)، المعارف، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ابن الاثير ، على بن محمد،(١٤٠٢ هـ-١٩٨٢م) الكامل في التاريخ،ج٣، بيروت ، دارصادر.
- ابن الاثير، على بن محمد،(١٢٩٠ هـ)،الكامل، مصر ، المطبعة الكبري.
- ابن خلكان، احمد بن محمد ، (١٩٤٨م)، وفيات الاعيان و انباء ابناء الزمان ، القايره .
- ابن سلام، محمد بن سلام الجمحي،(لا.ت) طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر، القايره مطبعة المدني.
- ابن منظور، محمد بن مكرم،(١٩٥٥ م) لسان العرب، بيروت.
- ابن النديم ، محمد بن اسحاق،(١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م) الفهرست، بيروت ، دار المعارف.
- الأصفهاني - أبو الفرج،(١٩٥٩ م ، ١٣٧١ هـ) الأغاني، دار الكتب المصريه.
- امين، احمد، (لا.ت) ضحي الاسلام، ط١٠، ج٢، بيروت، دار الكتاب العربي.
- بروكلمان - كارل،(لا.ت)، تاريخ الادب العربي - ترجمه عبدالحليم النجار، قم دارالكتاب الاسلامي، ط٢.
- البستاني، فؤاد،(لا.ت)، دائرة المعارف البستاني ، ج٤، بيروت، دارالمعرفة.
- الحموي، ياقوت،(١٩٣٦ م)، معجم الادباء ،مصر ، القايره.
- الجاحظ،(١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م)، البيان و التبيين ، تحقيق عبدالسلام هارون ، بيروت ، دار الجليل.
- الخوانساري - محمد باقر،(١٣٠٧ هـ)، روضات الجنات ، طهران، انتشارات اسلامية.
- الدجيلي ، عبدالكريم، (١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ م.)، ديوان أبي الاسود الدؤلي ، شركة النشر و الطباعة ، بغداد.
- السيوطي، جلال الدين،(١٣٢٦ هـ)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة، مصر.
- السيرافي، الحسن بن عبدالله،(١٩٣٦م)، اخبار النحويين البصريين، بيروت المطبعة الكاثوليكية.
- الصدر، سيد حسن،(١٣٧٠ هـ)، تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام، بغداد، شركة النشر و الطباعة.